

## الرقصة البنغالية

وارد بدر السالم\*

موسيقى "طاغور" التي تكونت من قصائد هذا الهندي العظيم وموسيقى "كازي نزرول" الشاعر الذي تحولت قصائده الى موسيقى شعبية تصدح بها الحناجر وتخف على وقعها الأقدام والأجساد . إلى يسار المسرح، بعد الجدار العاكس الثاني، ثمة راقصة تاسعة، تجلس وحدها على دكة من الموزائيك، وإلى جانبها مبخرة يتصاعد منها دخان أبيض كروح أدركتها ليلة الخطايا وسلة ماء مطهر للذنوب القديمة. لا تبدو تلك المرأة مغيّبة أبداً، بدلالة البقعة الضوئية الساقطة عليها من أعلى السقف، كما لو ثمة قصيدة بتتوير حضورها . كانت أكبرهن سنناً وأكثرهن خبرة في تتوير الجمهور المتفاعل مع أحلامه المقموعة في أزمان اختلط فيها البُعد والوحشة الأبدية .  
بائع الورد لا يغادر المكان حتى انفضاض ليل

ينفتح الـ SHOBURNA عن ثماني راقصات صغيرات مزهوات بثيابهنّ الفاقعة الألوان، جاعلات من الفضاء الصغير كرنفلاً لألوان الطبيعة البنغالية الصارخة. هذا هو المشهد المباشر والجاذب. إشعاع لوني يضيء المسرح ويكشف شيئاً من الجمهور على شكل رؤوس خلفية متقاربة منصتة الى إيقاعات محلية يفتقدها في غربته الطويلة. لكن بؤرة التركيز اللوني انصبّت على قلب المسرح وعلى الراقصات الصغيرات المشعات بألوان ثيابهنّ البراقة .  
يمكن ملاحظة جدارين من المرايا على يمين ويسار المسرح، وهما جداران مرآويان يحصران الراقصات الصغيرات في مستطيل يكفي أن يؤدين فيه رقصات الليل الطويل، وعادة ما تنعكس صورهنّ على مرايا الجدران، أو صور الجمهور المخمور بصخب الموسيقى ولوعة الفراق الطويل.

\* قاص من العراق .

الألوان الفياضة وانعتاق الأجساد في دورة الشبق الليلية التي لا تنتهي.

عبّرت الراقصة الثانية عن غبطتها وهي تمد ساعدين ناعمين اكتظا بالأساور والمعاضد وامتزجت فيها سبعة ألوان غامقة، فبدا ساعداها كقوسي قزح، يملآن حيزها بألعاب وصور طفولية ماضية ليس من اليسير استحضارها في ليالٍ كهذه.

الراقصة التاسعة لا ترقص عادة. انطوى زمانها البعيد؛ يوم كانت صبية تتناقلها المراكب والطائرات بين القارات الدافئة والباردة، وكان جسدها يتلوى على مسarach العواصم وحاناتها الضيقة، وكانت الأرواح الشريرة تجتاح جسدها الفتى وتزرع فيه خمرة الليل المعفرة بالخطايا والذنوب... الآن مات الجسد وبقيت الروح... تحول الجسد العملاق إلى خمرة رديئة، وبقيت أنفاس الأمس وحدها عمياء في ليل الغربة السكران.

الراقصة الثالثة أكثرهن هوساً بزرع الورود الملونة على شعرها المنسدل، كما لو أنها مزهرية تتفتح في أول الإيقاعات الراقصة. ارتدت ثوباً برتقالياً فضفاضاً لا يشف عن شيء من جسدها النحيف. أسنانها بيضاء. وحاجباها متصلان بغزارة كقوسين ملتصقين.

لم يكن وجود بائع الورد عفواً، فهو الشيفرة المعلنة بين فتيات المرقص والزبائن المنهكين بالأمانى والغرائز والشروود إلى الغرف السرية القميئة. بائع الورد الأسمر، ذو الشارب الكثير هندي الشكل، أكثر الحاضرين زهواً؛ إنه حامل ورد العشاق العابرين.

الراقصة الرابعة متسريلة بثوب أحمر قرمزي فاقع. تركت ساعديها عاريين وكشفت جزءاً مستحيلاً من صدرها الصغير. كانت الوحيدة التي نفرت من خط الرقص كغزالة مبتعدة عن قطع متوحش. كانت أكثرهن وحشية على ما يبدو؛ تركت خط الرقص

الخطايا: فتى لم يخضرّ شاربه، حاجباه غليظان، لكن عينيه الواسعتين المكحولتين تشيان بجديته وهو يعرض أقواس الورد على ساعده المتصالب؛ الورد الأحمر والأبيض والبنفسجي تحديداً. كان سعيداً بسرّواله "اللونجي" المختلط الألوان، وقميصه المشدود على رقبته بوردة قطنية بيضاء.

الراقصة التاسعة هي "أم" الراقصات وروحهن في ليل الرقص الطويل، وتعيوذتهن في رحلة الموسيقى الصاخبة إلى عوالم الخمرة والأمل المنعقد بين رنين الخلاخل الأسطورية واهتزاز الأجساد المفعمة بأريج الحب المتفتح في سيمفونية الغربية كزهور وحشية، وهي تترى هادئة أو صاخبة؛ تُطرب الرؤوس المغططة وتعيد لحظة مسروقة من حياة سرية يكتنفها التوجس والغموض.

لا تبدو لقطه الراقصات الثماني ثابتة، فالمساحة المشعة متحركة بثياب "الشالوار" المزركشة وبهاء الألوان الجذابة. وفي الوقت الذي كانت فيه وجوههن متفتحة ومبتسمة إلى حضور حالم ومخمور، كانت أجسادهن تتساقق مع إيقاعات منغمة تتكرر بين حين وحين، فتفتق عبقرية الجسد عن أسرار لا يعرفها إلا مَنْ كان غارقاً في عزلته السرمدية، قريباً من الروح المعذبة التي هجرتها مواسم الماء وذبلت فيها أوراد الربيع.

الراقصة الأولى تتباهى بشعرها الطويل النازل على كتفيها كشلال أسود. حاجباها مرسومان بدقة متناهية كخيطين رفيعين يكادان ينمسحان لشدة الضوء الساطع عليهما. بدت أصغر من عمرها كثيراً، ربما هي كذلك، لكن يمكن الإعتراف بطفولتها كثيراً، طفولة المرقص المتأرجحة. كان ثوبها بنفسجياً غامقاً.

أم الراقصات وروحهن الغامضة هي سُرة المشهد وسرّه. تقلقها الأرواح الشريرة المتربصة بأجساد فتياتها الساهرات تحت شحنات التراسل بينهن وبين الجمهور الغارق في كل شيء أمام مهرجان

منفعله، منقادة وراء فكرة غير معروفة... هل كانت تطلق ثمرة جسدها إلى العراء؟ هل كانت تطلق خطيئة الجسد لتحرره من قيود الليل الثقيلة؟ الجداران المرآويان لم يكشفوا جوانب أخرى من المرقص: ملصقات سياحية للطبيعة البنغلاديشية، أشجار جوز الهند العملاقة، مشاهد مختلفة من باريسال وشيتاغون وكولنا وراج شاني وسيلهت، نساء الساري الفضفاض بألوانه البهيجة، الشاي البنغلاديشي السحري، اللباس البنجابي لأثرياء دكا، سياح بيض الوجوه يتخاطرون بين غابات خضراء وجزر تكاد المياه تبتلعها...

أكثر ما يشد الجمهور المتوفز موسيقى "الراكاس" التي تستقدم صيحات الغابات المنغلقة وشلالات المطر الهادرة على سقوف الأكواخ، فتشد الراقصات الصغيرات أجسادهنّ النحيفة في دوران متعاقب تحت السطوع الأثير؛ غير أنهنّ يتباطأن بعد وقت محموم ملاًهنّ بالعرق الغزير، وهنّ يتبعن طبول "راميش شيل" القادمة من أقصى الطفولة الضائعة، وصنوج "هاسون راجا" التي تحفر في لحمهنّ شبق البدو المختلطين في جمهور يكاد يكون مغيباً. وأشعار "لالون فوكير" التي تبعث على التأمل وتبث الهدوء في مياسم الأجساد التي بللها شبق ضال وأمل ربما قتلته أمواج تسونامي في آخر لحظة.

كانت الراقصة الخامسة مزركشة بالأصداف البحرية والإكسسوارات اللماعة. تطوّق عنقها قلادة صدفية تناوبت فيها بضعة ألوان حارة، تلصف في منتصف جبهتها نقطة حمراء تبدو وكأنها لا تستقر في مكان واحد. وكان الساري الذي ترتديه أزرق بلون الخلجان البنغالية، وكان وجهها المثلث مختلج الملايح، لكنها مصرة على أن تبتسم في هذا الوقت بالذات من كل ليلة.

الراقصة السادسة اختلفت عن صويحاتها بقرطبيها الطويلين المتدليين حتى صدرها الناهد، بحلقة دائرية ألماسية كاذبة شكّت أنفها الصغير، وبنجمة

صفراء بين حاجبيها. غير أن الراقصة السابعة تمادت بعري صدرها، وبان طيف مذهل يشف عن حلمة بنفسجية مئذرة على نحو غير طبيعي؛ هذه البهارية السمراء ذات الساري الأصفر أكثر الفتيات انسجاماً مع طبول الغابات وشلالات المطر الهادرة على السقوف.

آخر الراقصات أصغرهن سنّاً، ارتبكت على شفيتها ابتسامة خجولة، وتركت ملابسها القمحية إلى الريح الراقصة من تحتها، وانطبعت تحت مبسمها هالة من ضوء مباغت كشف نقطتها البيضاء وألقى ظلّاً شفيفاً على حاجبيها المتصلين.

مبخرة أم الراقصات ما تزال تنفث دخاناً أبيض كما الروح، يتلوى أمامها بعداب لا تعرفه إلا هي. وعندما ينتصف الليل وتتناقل الخمرة في الرؤوس، تنهياً الفتيات إلى رقصة "أجيباهاهل"، وتنهياً أمهنّ الروحية في مكانها وهي تمسك سلة الماء المقدس وتغمس أطراف أصابعها فيها، متممة، فيما تتجه أنظار الراقصات الثماني إليها في تجاذب أمومي حنون، كما لو يستلمن شيفرة البدء بخلخلة الأجساد وتفكيك عناصرها السجينة وإطلاق ريحها المعطرة في آخر جولة من كرنفال الليل المقدس.

الـ"أجيباهاهل" مسك الختام في الـSHOBURNA ولوعة الانتظار الراقص على مدار الساعات. تهيأت راقصة الماضي لإمسك أرواح فتياتها قبل أن تغزوها الأرواح الشريرة المدنسة. انتهت "البيا" و"الكيا" و"النيشا" و"السوهيلي": رقصات التحفيز الأولى لمُعظّة الرؤوس. اختبار الأجساد الصغيرة في مطاولتها على تثوير الرؤوس الخدرة. نُسيّت أشعار طاغور وكازي نزرول وفوكير في صخب الليل. وتلاشت أصداء موسيقى الراكاس وطبول شيل وصنوج راجا. تماهت خطيئة الجسد المثار بالآتي من الليل.

الرقصة البنغالية الأخيرة: أجيباهاهل. يتوتر المسرح. تتسحب الراقصات إلى غرفة جانبية،

يتلوى بين الفتيات. مرت عليهن واحدة واحدة. نفخت على وجوههن قبضات من دخان سحري حريف. ثم نزلت بين الموائد وبخّرت الرؤوس المورقة وعادت من جديد لتجلس في مكانها الأول على دكة الموزائيك.

تقدمت الفتيات الثماني إلى مقدمة المسرح وقد غطين وجوههن بحجابات شفافة من القماش. جلسن ملتصقات محنيات الرؤوس، فبدون كعرائس ملونة يغمرهن الخضر والحياء والخوف أيضاً. فيما انطلقت تراتيل من مكان ما، وقد صاحبها موسيقى هادئة وتمتات الحكمة القديمة التي يمكن أن تسمعها الفتيات المنغمرات في جلال الموقف ورهبته. انسحب الليل إلى مداه البعيد بين التراتيل. بكت الفتيات. تبلت وجوههن بالدموع. الجمهور ينتظر بارتياح. لحظة البكاء ذروة التطهر. ثمة من يبكي بصمت. يتفاعل مع الفتيات وهو يخطو إلى الخطيئة. انتهت نوبة البكاء. هرعت الحكمة إلى بناتها. نهضت الفتيات وكأن عبئاً ثقيلاً انزاح من صدورهن وقلوبهن. تبدلت وجوههن، خلعت الحجابات. صرن أكثر مرحاً وابتسامات ملونة تتخاطف على ثغورهن. قبلتهن الحكمة جميعهن بفرح طفولي. تعانقن باحتفال طفولي بعد صلاة التطهر والتكفير. عادت أجواء الانفتاح تستشري في المسرح الصغير. الحاضرون يصفقون بتواصل... كل شيء مر بسلام. انهزمت الأرواح الشريرة، والراقصات الصغيريات في مأمن من المجهول هذه اللحظات الراقصة.

الآن ستبدأ الرقصة البنغالية الأخيرة: أجيهاهاهل.

فيتركن وراءهن عطرأ راقصاً. بائع الورد يتجول بين الموائد غير المرئية.

تعود الراقصات الصغيريات بعد دقائق، تتقدمهن راقصة الماضي، تتحني وتمد أصابع مرتشعة لتلمس خشبة المسرح وترفعها إلى جبهتها في ثلاث حركات متوترة ثم تصعد وسط المسرح. تتقدم ذات الساري البرتقالي وتلمس الخشبة بأصابعها بخشوع ذليل. الأخريات يتقدمن بالتناوب، يمارسن الطقس ذاته، ويتوزعن على يمين ويسار الراقصة التاسعة في خط مستقيم. الجمهور المخمور يفيق ويتحول إلى عين كبيرة منساقاً وراء الصمت العجيب.

حكيمة الليل القديمة تفترق عن بناتها الصغيريات وتلتقط من يد بائع الورد إبريقاً صغيراً. تغمس أصابعها وتخرجها وترش على الجمهور رذاذاً عطراً. تهبط من المسرح وتتوزع بين الموائد، حريصة أن تنثر ماءها المقدس على رؤوس كل الحاضرين. تصعد إلى المسرح ثانية وتقف أمام بناتها الصغيريات المخدولات في جو سحري خرج من لهاث الرقص ودخل إلى تمجيد المجهول والإنصات لطقس لا بد منه، فالحكيمة العارفة بماضيها الراقص، لها مقدرة سحرية على أن تطرد المدنس من الرؤوس. يتقطر الماء المقدس من أصابعها وتتركه ينقط على رأس الفتاة الأولى التي أحنّت رأسها بخشوع، ثم رشّت منه بضع قطرات على صدرها. كل الفتيات منسحقات تحت وطأة الصمت. مرت عليهن واحدة واحدة. تنقلت بين الثياب الملونة. كانت أصابعها تنزف الرذاذ على رؤوس وصدور فتياتها المحنّيات وهنّ لا يرين وجه حكيمتهنّ المحتقن. انسحبت وتركت الإبريق في مكان من المسرح، ثم التقطت من بائع الورد مبخرة صغيرة تعالي دخانها الأثير